«١٨»

محمد بن عمر بن سلم

أسرته، نسبه - ميلاده، نشأته - رحلته إلى مصر، دراسته في الأزهر - إجازة العلماء له - عودته إلى الشحر - زيارته لوادي حضرموت - لماذا اختار غيل باوزير - بناؤه المعهد - جانب من سيرته - وفاته - تلاميذه

❖ أسرته، نسبه:

في حارة عيديد من مدينة الشحر بيت متواضع تقيم فيه عائلة تحدرت من أسرة كريمة عرفت بالنبل والفضل، يتصل نسبها بالهاشميين من بني عقيل بن أبي طالب، ولا يعرف بالضبط متى هاجرت هذه الأسرة إلى حضرموت، ولكن التاريخ يثبت أنها كانت معروفة بهذا الاسم المتداول الآن - ابن سلم - في مطلع القرن السابع الهجري، فقد ذكروا أن العلامة الشيخ علي بن سلم أحد كبار تلاميذ السيد عبدالله بن علوي ابن الفقيه المقدم كان مجاوراً مع شيخه بمكة في شهر رمضان، فكانا إذا فرغا من صلاة التراويح أحرم كل منهما بركعتين يقرأ فيهما القرآن كله، وكانت هذه الأسرة تقطن أثناء القرن السابع بقرية في ضواحي عينات تدعى قرية آل بن سلم، فيها توفي الشيخ علي السابق ذكره، وبها دفن.

ويظهر أن أحد أجداد هذه العائلة التي نتحدث عنها اضطر أن ينتقل بأهله من الداخل أثناء الفتن والحروب التي كان وادي حضرموت مسرحاً لها طيلة قرون طويلة، فاختار الإقامة في مدينة الشحر التي كانت أهم مدن

الساحل في ذلك العصر، وهي وإن لم تكن بمنأى عن براكين الفتن والأحداث الدموية فقد كانت أسباب العيش فيها متوفرة وعوامل الأمن والهدوء أقل تعرضاً لزلزال الاضطرابات، والهجرة من مناطق الداخل إلى السواحل الحضرمية الجنوبية معروفة منذ أمد طويل.

❖ ميلاده، نشأته:

في سنة ١٢٧٤هـ كان ميلاد صاحب الترجمة محمد بن عمر بن بكران بن سلم في بيت والده بحارة عيديد من مدينة الشحر، في عصر حالت فيه ظروف البلاد السياسية وأحوالها العامة دون ازدهارها الثقافي والاجتماعي، ومن أسرة عريقة في الشرف والفضل.

وليس بين أيدينا مصادر موثوق بها تلقي على نشأته الأولى شيئاً من الضوء سوى أنه نشأ تحت رعاية أبيه الذي لم يلبث أن عاجلته منيته في غيل باوزير أثناء زيارته لها ودفن بمقبرة «فحيل» المشهورة، وسوى أنه تلقى مبادئ القراءة والكتابة ودرس القرآن والفقه وأوليات علوم اللغة على المشتغلين بهذه الشؤون من طلبة العلم الموجودين إذ ذاك بالشحر، وكان معروفاً منذ صغره بالذكاء والفطنة والرغبة الشديدة في تحصيل العلم والانقطاع له، وقد واصل الدرس ولازم المشتغلين بالعلم حتى استطاع في سن مبكرة أن يتصدى للإفتاء والتدريس في مساجد الشحر، وكان يجلس للدرس غالباً في مسجدي عيديد وابن عمران، ولم يصل إلينا من أسماء أساتذته الذين درس عليهم بالشحر سوى اسم الشيخ ناصر بن صالح ابن الشيخ علي اليافعي، ولعله كان أكثر ملازمة له واستفادة منه.

❖ رحلته إلى مصر، ودراسته في الأزهر:

لم تكن الحياة العلمية الضئيلة بالشحر آنذاك لتشبع نَهم صاحب الترجمة أو تروي له غليلاً، وليس في هذا المقدار الذي وعاه من العلم من زملائه وأساتذته ما يكفيه القيام ببث حركة ثقافية تدب روحها في أنحاء

الساحل، فتتضامن مع الحركة العلمية التي أخذت تنمو وتتقدم في سيئون وتريم بالداخل، وهو لو كان يطلب العلم ليكون وسيلة إلى الجاه والعيش الهنيء لاكتفى بما عنده قانعاً بما يدر عليه من بسطة في العيش وأثر في الحياة محدود يتناسب مع أحوال عصره وبيئته، ولكن نظره كان أبعد من ذلك، وكانت همته أسمى من أن يقف أمام مراميها الإصلاحية إيثار الراحة والركون إلى الجاه الزائف.

لقد كان الرجل يريد مزيداً من العلم يكون ذخيرته في الإصلاح والدعوة إلى الله ونشر تعاليم الإسلام، فلم يجد أحسن من أن يتجه إلى أكبر جامعة إسلامية في العالم، إلى الأزهر الشريف، حيث يتخرج فحول الرجال وأقطاب الدين في العالم الإسلامي، والجدير بالملاحظة والأمر الذي يسترعي الانتباه في هذه الظاهرة أنه لم يكن من عادة سكان الساحل التغرب إلى الأقطار البعيدة وتحمل مشاق السفر وأتعابه في ذلك العهد طلباً للثروة والتجارة فضلا عَن السعي للعلم والأدب.

وليس من الصدفة في شيء أن يشذَّ صاحبنا فتسوقه الأقدار سوقاً إلى القاهرة دون وعي أو اختيار، فلم يبق سوى طموح الرجل وبعد نظره وسمو همته يدفعه كل ذلك دفعا إِلى الخروج على التقاليد التي ألفها مواطنوه والارتفاع بعقله وتفكيره فوق مستوى الوسط الذي عاش فيه، فإذا هو في القاهرة يكرع من أكبر منهل ديني إسلامي، ويصل سواد ليله ببياض نهاره في الدرس والتحصيل استعداداً لتنفيذ آماله وأمانيه.

ولم نقف على تاريخ رحلته إلى مصر بالضبط، ولكنا نستطيع أن نستنتج من تاريخ الإجازة التي أجازه بها كبار مشايخ الأزهر عند اعتزامه العودة إلى وطنه وبعد حصوله على شهادة العالمية أن رحلته كانت سنة ست بعد الثلاثمائة والألف، فقد كتبت هذه الإجازة في ١٥ صفر سنة ١٣١١هـ، فإذا لاحظنا ما أجمع عليه من عرفنا من تلاميذه المتحدثين عنه من أنه أقام

في مصر أربع سنين وأشهراً تبين صحة ما ذهبنا إليه من تحديد تاريخ سفره.

أما العلوم التي تلقاها في الأزهر فهي: التفسير والحديث والأصول والفقه وعلوم اللغة والمنطق والفلك وغيرها من الدروس التي كانت تدرسها الأقسام العالية في الجامعة الأزهرية.

وكان أخص من اتصل بهم من مشيخة الجامع الأزهر وتلقى عنهم علومه شيخ الإسلام محمد الأنبابي، والشيخ أحمد الرفاعي سمع عنه الحديث، والشيخ إسماعيل الحامدي سمع عنه النحو، والشيخ الأشموني، والشيخ حسين زائد مدرس علم الميقات.

❖ إجازة العلماء له:

بعد أن أنهى دراسته في الأزهر، وقرر العودة إلى وطنه كتب له كبار مشايخه هذه الإجازة التي عثرت عند أحد كبار تلاميذه على النسخة الأصلية التي أمضاها ما يزيد على خمسة وعشرين من رجال الأزهر من علماء المذاهب الأربعة، بينهم الشيخ إسماعيل الحامدي المالكي، وهارون عبدالرزاق المالكي، وحسن حسن بدير الجريسي خادم القرآن بالأزهر، ومحمد موسى البجيرمي الشافعي، وعبدالوهاب الخضري الشافعي، وحسن السقا الشافعي خطيب الأزهر، وحسين زائد مدرس علم الميقات، وإبراهيم الظواهري، وحسن المرصفي، ومتولي علي الحنفي، وأحمد السيوني الحنبلي وغيرهم، وقد جاء في هذه الإجازة بعد الديباجة ما نصه:

«وكان ممن هاجر لمصرنا، وعكف على اقتطاف ثمرات الفنون العلمية من رياض درسنا، وحضر في أزهرنا الكتب المختصرة والمطولة، من بلغ مراده من هذا الشأن واستكمله، ولدنا وقُرة أعيننا المرتوي من بحر الحقائق الشيخ الفاضل والجهبذ الكامل محمد بن عمر بن سلم العقيلي الشحري، ولما عادت على هذا الماجد عوائد أزهرنا، وتحلى بأنضر حلة من محاسن مصرنا، وحَنَّتْ له الأوطان، وطلبه الأهل والإخوان، ولبّى

وأجاب، وحَنّ للّقاء والاقتراب، بعد أن ركب في مدته الطويلة بأزهرنا جياد فكر لا تُسبق، واستعمل في تحصيله عوالي همم لا تلحق، حتى أدرك في العلوم والفضائل غاية وقفت دونها همم المحصلين، ودقة قصرت عنها أنظار المدققين، استجازنا في الفنون العلمية ومروياتنا السنية، فأجزناه بكل ما تجوز لنا روايته ودرايته إجازة عامة في التدريس والفتوى، ونوصيه بتقوى الله في السر والنجوى، أجرى الله على يده نفع العباد، ورفع كلمة الحق والسداد، ونرجوه أن لا ينسانا من خير الدعوات في أماكن الإجابات».

وقد أجازه الشيخ أحمد الرفاعي المالكي إجازة خاصة برواية صحيح الإمام البخاري وإجازة عامة بما تلقاه وأُجيز به من مشايخ عصره، وفي مصر اجتمع بالعلامة السيد أحمد بن حسن العطاس أثناء زيارته لها، وكان هذا الاجتماع بداية صلة متينة بين الشخصيتين الكبيرتين، وقد توثقت هذه الصلة بعد عودتهما إلى حضرموت وأثمرت تعاوناً بينهما فيما هو بسبيله من نشر تعاليم الإسلام والدعوة إلى الله.

❖ عودته إلى الشحر:

إذا جرينا على استنتاجنا السابق في تاريخ سفره إلى مصر فإن عودته من القاهرة إلى الشحر تكون في سنة ألف وثلاثمائة وإحدى عشرة، وقد أخذت الأحوال في البلاد الساحلية تستقر وتسير فيها الحياة سيرا طَبيعياً، فقد خضعت أهم مدن الساحل للسلطنة القعيطية القوية الفتية، وابتعدت عن الأذهان فكرة الغارات والحروب الأهلية بفضل نفوذ هذه الدولة وقوة بأسها، فكان السبيل - لذلك - ممهداً أمام المصلحين والدعاة لبث دعوتهم ونشر تعاليمهم.

وطبيعي أن يتخذ العلامة ابن سلم من الشحر مسقط رأسه محوراً لنشاطه ومركزاً لدعوته، فعقد فيها دروساً عامة للوعظ والإرشاد، ونشر أحكام الدين ومبادئ الأخلاق والفضيلة، وتذكير العامة بالله واليوم الآخر،

ودروساً خاصة للطلبة والمنقطعين للعلم.

وقد أخبرني الأستاذ السيد محمد بن هاشم الأديب المؤرخ والكاتب الحضرمي المعروف أنه كان يختلف في هذه الآونة إلى درس الشيخ محمد بن سلم للأخذ عنه والاستماع إليه، وقال: إنه عرض على الشيخ قصيدة من نظمه في مدح السلطان غالب القعيطي فأثنى عليها واستغرب صدورها من الأستاذ في مثل سنه.

وقد توافد الناس لحضور درسه وقصدوه من كل ناحية لاستفتائه في المسائل الشرعية التي تعرض لهم حتى شاع ذكره وانتشر صيته في جميع أنحاء الساحل والداخل، وعرض عليه قضاء الشحر أيام ولاية الجمعدار حسين بن عبدالله القعيطي عليها فرفض مفضلاً التفرغ للدعوة إلى الله وخدمة الدين والأمة عن طريق نشر العلم على سطوة القضاء وجاه الحكم ومتاع الدنيا، فقد كانت نزعة الرجل إلى الإصلاح الاجتماعي أقوى من أن تخضع لتأثير المادة أو شهوة الحكم.

❖ زيارته لوادي حضرموت:

أخبرني غير واحد ممن عاصروا الشيخ في هذه الفترة أنه كان مقتنعاً بوجوب البحث عن مدينة أخرى غير الشحر تتوفر فيها الوسائل التي يراها لازمة لنجاح مشروعه الذي هو بصدده من بناء مؤسسة علمية يتخصص فيها الطلبة في علوم الدين واللغة وتضم قسماً داخلياً لإيواء الطلبة الغرباء، وقبل أن يصل إلى قرار حاسم في الموضوع رأى أن يقوم برحلة إلى داخل حضرموت لزيارة علمائها وصالحيها والتعرف إليهم، وأخذ فكرة عن مدى الثقافة الموجودة هناك ونظام التدريس المتبع عندهم.

وقد كانت هذه الزيارة ذات أثر طيب بالنسبة للمشروع الذي طالما شغل تفكيره، فقد استطاع أن يُكَيّف أسلوبه في الحياة وطريقة معالجته للأمور بالمقدار الذي يضمن لخطته النجاح، وكان الرجل على جانب كبير

من الذكاء ورجاحة العقل والكياسة واللباقة، وقد أثنى عليه علماء حضرموت واعترفوا بفضله وفي مقدمتهم الزعيم الروحي الكبير العلامة السيد علي بن محمد الحبشي، وقد أشار إليه في أحدى قصائده. أما العلامة السيد أحمد بن حسن العطاس فقد كان أكثرهم اتصالاً بالشيخ محمد وأشدهم عناية به، وهو من أوائل المشجعين له على الإقامة بغيل باوزير وبناء المعهد العلمي بها «الرباط».

هذه هي الزيارة الأولى التي قام بها العلامة ابن سلم لزيارة بلدان الداخل، أما الزيارة الثانية فقد كانت بعد بنائه الرباط في غيل باوزير واستقراره بها وبعد أن كان له تلاميذ وأتباع كثيرون، فقد سار إليها في جماعة كبيرة من أتباعه وطلبته، وكان يقابل بالحفاوة والإكرام حيثما اتجه وأينما حل، وقد وجد الطلبة في هذه الزيارة الفرصة الوحيدة للتعرف إلى كثير من الشخصيات ذات المكانة المرموقة في البلاد في عصر كانت صعوبة المواصلات تحول فيه دون إتاحة هذه الفرصة لكل طالب.

❖ لماذا اختار غيل باوزير؟

أخذ ابن سلم عقب عودته من الداخل يفكر جدياً في المكان الصالح لتنفيذ مشروعه الضخم فولى وجهه نحو المكلا وتردد إليها غير مرة واعظا ومدرساً ومتصلاً بمن فيها من الشخصيات ورجال الحكم وأعوانهم وأرباب الثروة، ودارساً للحالة هناك. وإذا كان صدره لم ينشرح للإقامة بالمكلا فقد أوجدت له هذه الزيارات المتكررة إليها أصدقاء مخلصين وأعواناً بررة أكثرهم من أرباب الثروة وذوي الجاه والنفوذ، وأكبر الظن أنه أفضى إليهم بخبيئة صدره فوعدوه بالعون والتأييد.

وفي الطريق إلى المكلا كان ابن سلم كثيراً ما يعرج على غيل باوزير فينزل ضيفاً على آل «أبو سبعة» الذين نزحوا من المكلا لزراعة التمباك «التبغ» في الغيل والتجارة فيه، وربما قصد الجامع فأدى الفريضة وزار

ضريح الشيخ عبدالرحيم باوزير، وحضر مرة أحد الاجتماعات في مسجد السيد عمر التي يقيمها الأهالي لقراءة قصة المولد النبوي، فتحدث إلى الناس في هذا الاجتماع، وأعجب الحاضرون بغزارة علمه وطلاقة لسانه وقوة بيانه، وخرجوا وقد استولى الرجل على قلوبهم فراحوا يذيعون على الناس ما سمعوا وما رأوا مُكْبِرين لهذا الزائر الغريب معجبين به.

وحدث مرة أن قدم إلى الشحر جماعة من آل باوزير سكان الغيل لاستئناف حكم أو قرار صدر من قاضي الغيل الشيخ عبدالقادر بامخرمة في صالح فريق منهم ضد فريق آخر فاستعان حاكم الشحر الجمعدار حسين بن عبدالله القعيطي بالشيخ محمد بن سلم في الفصل بين المتخاصمين وإرجاع الحق إلى نصابه، وتبين خطأ القاضي بعدما استقدم إلى الشحر ونوقش في الإجراءات والمقدمات التي بنى عليها حكمه أو قراره، وكانت هذه الحادثة من بين الأسباب التي كان لها الفضل في تردد اسم الشيخ محمد في أرجاء الغيل وفي توثيق صلته ببعض المشايخ من آل باوزير وعلى الأخص الشيخ عبدالصادق بن سالم باوزير أحد الذين قدموا الشحر في قضية الاستئناف والذي أصبح فيما بعد من أكبر أنصاره ومن أبرز طلبته، كما كانت هذه الاتصالات والزيارات المتكررة لغيل باوزير من جملة الأسباب التي دعته للتفكير في اختيار هذه البلدة الريفية الهادئة الوادعة لإنشاء المعهد الديني بها، فإن البعد عن ضوضاء المدن وصخَبها من أهم العوامل لصفاء الفكر وراحة العقل والجسم وأدعى للاستزادة من الغذاء العقلي، أضف إلى ذلك قلة تكاليف المعيشة في هذه المنطقة الزراعية وبساطتها وجودة هوائها وتوفر المياه العذبة النقية بها.

ولم تدخل سنة ألف وثلاثمائة وعشرين حتى كانت الفكرة قد تحولت إلى إرادة وعزم وتصميم، فغادر الشحر يصحبه أقدم تلاميذه الشيخ عبدالله بن محمد بن طاهر باوزير متجهاً إلى الغيل حيث نزل ضيفاً على الشيخ

عبدالصادق بن سالم باوزير، وعقد في مساء اليوم الذي قدم فيه أول دروسه العامة في مسجد الجامع، ثم استمر يلقي دروسه الليلية العامة في هذا المسجد ويجلس إلى الطلبة صباحاً في بناية خاصة أقيمت لهذا الغرض بالقرب من مسجد السيد عمر.

وقد توافد الطلبة من كل الطبقات للأخذ عنه وتفرغوا للطلب، وكان أكثر الطلبة في البداية من أبناء المشايخ آل باوزير الذين نزل ضيفاً عليهم، فبادروا إلى تعضيده ومساعدته وسهلوا له مهمته وزوجوه إحدى بناتهم، وكانوا عوناً له في كل أعماله الثقافية والإصلاحية، ثم حصل بينه وبينهم بعض الجفاء، وظل جماعة منهم مخلصين له إلى أن توفي رحمه الله.

❖ بناؤه المعهد:

وضاقت البناية الجديدة بالطلبة ولم يكن بُدٌّ من إنشاء معهد ضخم يتناسب مع المستقبل الذي يريده له صاحب الفكرة، ولم تمض شهور حتى أصبحت الفكرة حقيقة واقعة، وإذا المعهد يحتل أحسن بقعة في الشمال الغربي لمسجد الشيخ عبدالرحيم بن عمر «الجامع» ويتألف من طابقين: الأول منه للدراسة والاجتماعات العامة وأداء الصلوات، والثاني يتكون من عدة غرف لإيواء الطلبة الغرباء، وأنشئت في الجانب الشرقي من المعهد عدة برك «جوابي» تمر بها مياه العين التي حفرها مؤسس الغيل الشيخ عبدالرحيم بن عمر لِتَسُدَّ حاجة المعهد إلى الماء.

وبنى صاحب الترجمة منزلاً لإقامته ملاصقاً للمعهد من الجهة الغربية، واشترى قطعة أرض شمالي المعهد، جعل منها حديقة تابعة للمنزل كان يوليها جانباً من عنايته ويتعهد ما فيها من النخيل والمزروعات.

وانتظمت الدراسة في المعهد، وقسّم الطلبة إلى فرق حسب مستواهم في الفهم والإدراك وحظهم من الثقافة، وشغلت أكثر ساعات النهار وجزء كبير من الليل بالدروس الخاصة والعامة والاجتماعات المفيدة، ووزعت

دروس الدين وعلوم اللغة على هذه الساعات، وازدحمت الحلقات بالطلبة على اختلاف أعمارهم يتسابقون في التحصيل ويتنافسون في السبق.

وكان صاحب الترجمة يحتفظ بمكتبة كبيرة حافلة بكتب التفسير والحديث والأصول والفقه والمنطق والأدب والتاريخ وعلوم اللغة والتصوف والطب والفلك وغيرها، وكانت هذه الكتب في متناول جميع المتأهلين من الطلبة.

واتجهت الأنظار من جديد إلى غيل باوزير حيث أشرقت شمس المعرفة من هذا المعهد الديني، الذي سخرت له العناية الإلهية رسول الأزهر الشريف العلامة ابن سلم فأحيا دروس السنة وعلوم القرآن، وجدد الدراسات الفقهية واللغوية بعد أن مضت على هذه المدينة فترة طويلة اختفى فيها كل أثر للعلم والمعرفة أو كاد.

وهكذا أصبحت غيل باوزير بفضل العلامة ابن سلم قبلة الأنظار وكعبة الطلبة والزوار يقصدها الناس من كل مكان لطلب العلم ومعرفة أحكام الشريعة، كما كانت كذلك في القرن التاسع الهجري حين كان يقصدها من تريم أمثال العلامة الإمام محمد بن أحمد بافضل ليدرس القرآن والفقه والتصوف على علمائها.

❖ جانب من سيرته:

مما لا شك فيه أن النجاح الكبير الذي أحرزه ابن سلم يعود إلى ما وهبه الله من أخلاق كريمة وإلى ما يتمتع به من صفات نادرة، فقد كان الرجل صاحب مبدأ في الحياة ورسالة خاصة يؤمن بهما إيماناً عميقاً، ويخلص لهما إخلاصاً شديداً، ويعمل من أجلهما عملاً متواصلاً، استبدّ بكل وقته وتفكيره وجهده وراحته، وكان إلى جانب ذلك قوي الإرادة ماضي العزيمة، راجح العقل سليم التفكير حسن السياسة كيّساً لبقاً واسع الحلم كثير الصفح، لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً.

وهذه الصفات التي اجتمعت في العلامة ابن سلم هي بعينها صفات الزعماء الدينيين والمصلحين الاجتماعيين الذين يملكون قلوب الجماهير باستقامتهم ونزاهتهم وقوة شخصياتهم وإخلاصهم لمبادئهم، فتندفع وراءهم الأمة متسابقة إلى تأييدهم وتقديم المعونة لهم، وبذلك نستطيع أن ندرك سر نجاح صاحب الترجمة في تحقيق مشروعه الضخم الذي تتردد الحكومات طويلاً - فضلاً عن الأفراد - قبل أن تقدم عليه نظراً لما تتطلبه أمثال هذه المشاريع من ميزانية ضخمة ومعونة مادية وتأييد أدبي من قبل الشعب.

وكان العلامة ابن سلم يعيش في بيته عيشة زهد وتقشف وقناعة، وقد أخبرني أحد تلاميذه أنه رآه مرة يتغدى بالخبز الجاف والسمك المالح، وكان في نفس الوقت ينفق على شؤون المعهد والطلبة بسخاء نادر، وكان كثيراً ما يخص فقراء الطلبة بمزيد من عنايته ويزورهم في بيوتهم مواسياً لهم ومتفقداً أحوالهم ومتعرفاً إلى حاجاتهم ليقضيها لهم.

وكان - رحمه الله - مهيب الطلعة بهي المنظر حسن الهندام شديد العناية بنظافة ملابسه وحسن اختيارها، كما كان قوي الجسم جمّ النشاط جلداً صبوراً، ويتحدث تلاميذه عن نشاطه بالغريب المدهش.

فقد ذكروا أنه يبدأ عمله اليومي من ثلث الليل الأخير يقضيه في صلاة وتلاوة وأذكار، ثم يجلس للدرس بعد الانصراف من صلاة الصبح مباشرة، فإذا طلعت الشمس تناول فطوره في بيته وعاد لتدريس الطلبة حتى تحضر صلاة الظهر فيؤدي الفريضة، ثم يعقد درساً خاصاً لبعض الطلبة ينصرف بعده إلى بيته ليعود وقت العصر للصلاة والدرس، فإذا حضر المغرب أدى صلاته وجلس لاجتماع عام يضم جميع الطلبة وجمعاً غفيراً من الأهالي يتناول فيه مواضيع مختلفة تتعلق بدروس الطلبة ومواعظ عامة ويستمر هذا الاجتماع إلى صلاة العشاء.

وهكذا كان يقضي يومه حريصاً على أن لا يفوته جزء من هذا البرنامج

إلا حيث يضطر إلى الذهاب إلى الشحر أو المكلا أحياناً أو بعض القرى، وكثيراً ما يحدث أن يصادف قدومه وقت انعقاد الدرس فيغادر ظهر دابته إلى حلقة الدرس رأساً قبل أن يزور أهله أو يأخذ راحته.

❖ وفاته:

إلى أي حد كان يصل نشاط هذا المصلح الكبير والمربي القدير لو امتدت حياته؟ لست أدري، ولكن سنة **١٣٢٩**هـ لم تكد تدخل حتى اختطفت المنون ذلك العلامة المصلح قبل أن يتمّ رسالته ويبلغ شوطاً بعيداً في مهمته عن أربعة وخمسين عاماً، فقد كانت وفاته في سادس المحرم من ذلك العام.

وكان لموته رنة أسى في أنحاء الساحل وفي القطر الحضرمي بأجمعه، وشيعت جنازته الجموع الغفيرة ودفن في مقبرة فحيل المشهورة غربي مدينة الغيل، وقبره معروف بها يقصده طلبة المعهد وغيرهم كل يوم جمعة للزيارة، وقد رثاه كثير من تلاميذه وعارفي فضله بقصائد بالغة في الحزن والأسى، ومن بين هذه المراثي قصيدة باللغة الدارجة التي لا تتقيد بقواعد اللغة نظمها في رثائه وزير الدولة القعيطية الأول السيد حسين بن حامد المحضار العلوي، وقد تناقلها الناس وحفظوا أكثر أبياتها، ومنها هذه الأبيات التي كثيراً ما ينشدها النساء والرجال في الغيل:

ليت الفِدا يُقبَل وبانَفْدِي على الشيخ أربعون
وإلا مائة من خلق لا نفعوا ولا باينفعون
جلوس في الدنيا كذا مثل البهائم يأكلون
عليك يا بن سلم حتى الطير بايبكي شنون

وقيل في سبب وفاته إنه مات مسموماً من بعض الجهلة الذين كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، فقد شكا ألماً شديداً في بطنه عندما كان بالمكلا في إحدى زياراته لها، فنقل إلى الغيل حيث فارق الحياة بها

متأثراً بهذا الألم، عليه رحمة الله ورضوانه، وقد تناول الناس خبر السم مصدقين له؛ لأنهم يعرفون أنه ابتلى بحُسَّاد وجهوا إليه ألواناً من الأذى والمكايد لم ينالوا منه ما يبتغون.

❖ تلاميذه:

نستطيع أن نقيس مقدار النجاح الذي أحرزه العلامة ابن سلم بالمتخرجين من تلاميذه الذين استطاعوا بعده أن يحتفظوا بالرباط أثراً خالداً من آثار أستاذهم الكبير يُمِدُّ المجتمع - في حدود طاقته - بما هو في حاجة إليه من علوم الدين واللغة العربية، وقد انتشر عدد كبير منهم في كثير من المناطق والأقطار يعلمون الناس ويدعون إلى الله، فكان منهم الواعظ والمدرس والقاضي والمحامي والكاتب المؤلف إلى غير ذلك من أوجه النفع الديني والدنيوي، وقد سافر بعضهم إلى مصر لإتمام دراستهم في الأزهر الشريف كالأستاذ الشيخ محمد بن سالم باوزير، والسيد علوي مديحج، والشيخ أحمد بن محمد بن سلم.

وكان الشيخ عبدالله بن محمد بن طاهر باوزير أقدم تلاميذ العلامة ابن سلم وأكثرهم اتصالاً به، فقد بدأ دراسته عليه عندما كان بالشحر، وكان ينوب عنه في التدريس بالرباط حال حياته، وللشيخ عبدالله هذا قدرة عجيبة على الوعظ والتأثير في الناس، فكان إذا تكلم واعظاً أو مدرساً بهر مستمعيه وأدهشهم بحلاوة لسانه وسرعة بديهته وقوة تأثيره وكثرة استشهاده بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي - عليه السلام - وأقوال السلف الصالح وخصوصاً الصوفية منهم.

وكان إلى جانب ذلك - أو من أجل ذلك - محبوباً من الناس لا يسمعون بوجوده في الرباط أو في أحد المساجد حتى يغص المكان بالمستمعين إلى دروسه ومواعظه، وكان إذا صلى الجمعة في مسجد تطلعت الرؤوس عقب الصلاة إلى المكان الذي يصلي فيه منتظرة ذلك الصوت

الحبيب إلى نفوسها والحديث الحسن الوقع في قلوبها، كما كان حسن الصوت جيد الترتيل للقرآن الكريم كثير الخشوع عند القراءة، وربما قرأ في الصلاة بعض السور الطويلة فود المصلون أن يطيل ويطيل.

توفي رحمه الله في جمادى الأول سنة ١٣٥٤هـ عن ثلاثة وخمسين عاماً، ودفن بجانب ضريح شيخه العلامة ابن سلم.

ومن أبرز تلاميذ الشيخ محمد بن سلم السيد محسن بن جعفر أبونمي، فقد كانت له معرفة جيدة بالفقه ومشاركة في بقية العلوم الأخرى شرعية ولغوية.

وله عدة رسائل - مخطوطة - في مختلف العلوم، تولى القضاء عدة مرات في المكلا وغيل باوزير، وكثيراً ما يقصد لاستفتائه في المسائل الفقهية، فيدلِّل بما يكتب على خبرة واطلاع واسعين، وبعد أن اعتزل القضاء تخلّى لتدريس الطلبة وتدريب القضاة الشرعيين في كورسات دَوْريّة تعدها وتنظمها الحكومة المحلية تحت إشراف رئيس القضاة الشرعيين.

والشيخ أحمد بن محمد باغوزة هو التلميذ الوحيد من تلاميذ الشيخ محمد بن سلم الذي انقطع للتدريس في الرباط منذ وفاة أستاذه حتى كتابة هذه السطور، ولم يفارق هذه الوظيفة أو يشتغل بأي عمل آخر، ولذلك فهو أستاذ أكثر الخريجين من الرباط بعد وفاة ابن سلم، ومعلوماته في الفقه واللغة جيدة.

والذي يترجم للشيخ محمد بن سلم لا بد أن يذكر الشيخ عبدالصادق بن سالم باوزير، فقد كان من كبار تلاميذه المناصرين له المشجعين لحركته، تولى التدريس مدة في الرباط عقب وفاة أستاذه، ثم ذهب إلى الصومال الإنجليزي حيث تولى القضاء هناك، ثم عاد محالاً إلى المعاش، وتوفي سنة ١٣٧٥هـ.

ومن تلاميذ ابن سلم الذين لهم جهاد مشكور في نشر المعرفة والثقافة

الشيخ عوض بن سالم بلقدي إمام ومدرس مسجد النور في المكلا وأستاذ المعهد الملحق به، والسيد علوي مديحج صاحب المدرسة المشهورة في الشحر، والتي تخرج منها الكثير الطيب من الطلبة وغير هؤلاء كثير وكثير.

وفيمن ذكرنا ما يكفي للدلالة على مدى النجاح الذي صادف ذلك الرجل المخلص الذي يعتبر بحق باعث الحركة الثقافية في الساحل الحضرمي، نضَّر الله محياه وبَلّ بوابل الرحمة ثراه، إنه خير من يجزي المحسنين ويضاعف أجر العاملين.